قضية
الأستاذ غريب

محمد الحموي

قصة قصيرة
نسخة الكترونية

قضية الأستاذ غريب

محمد الحموي

قصة قصيرة من مجموعة قصصية بعنوان
(تحت المؤخرة)

نسخة الكترونية

رسوم القصة: المؤلف

رقم إيداع

٢٤٩

إدارة حقوق الملكية الفكرية

وزارة الثقافة / جمهورية مصر العربية

القصة محمية دولياً ضمن اتفاقيات حماية حقوق الملكية الفكرية الدولية

يمنع نسخ أي جزء من هذا القصة بأي وسيلة الكترونية أو طباعية أو تصويرية أو تسجيلية صوتية أو أي وسيلة نشر أخرى دون الرجوع للمؤلف والحصول على إذن خطي منه.

النسخة الوحيدة المتاح تداولها لهذه القصة بموافقة المؤلف هي النسخة الالكترونية المنشورة على موقعه الشخصي فقط.. وأي نسخة أخرى تعتبر انتهاكا لحقوق الملكية الفكرية.

١/١/٢٠٢٠

الفصل الأول: التحقيق

ـ أين الأستاذ غريب؟

كان السؤال بسيطا لكن إجابته كانت أصعب من أن يستطيع أي شخص عادي احتمالها والتعامل معها بشكل طبيعي.. وكانت تلك الإجابة أيضا سببا في فتح أبواب الخروج من النسيج الاجتماعي على مصراعيها بالنسبة إليه.

لم يجب فورا لكنه نظر في عين سائله تلك النظرة التي يترجاه فيها ضمنا أن يصدقه لأن ما سيقوله تاليا.. سيكون من النوع الذي لا يصدق.

ـ لقد.. تحوّل إلى عصفور.

نهض المحقق من خلف مكتبه.. وتمشى تجاه باب الغرفة.. فأغلقه ببطء وعاد متمهلا.. ثم أعاد سؤاله بهدوء وبنبرة فيها سؤال فرعي ضمن السؤال الأساسي.. وكأنه يسأل استنكارا للإجابة الأولى لا بحثا عن الحقيقية:

ـ أين قلت الأستاذ غريب؟!!

ـ لقد تحول إلى عصفور !

جلس المحقق مرة أخرى وراء مكتبه.. أشعل إحدى سجائره التي كانت مدسوسة في علبة نحاسية.. وسحب منها نفسا طويلا ثم ألقى الدخان دفعة واحدة في هواء الغرفة الصغيرة..

ـ انظر.. لقد وصلني أنك أخبرت كل من كان معك بالشركة أن الأستاذ غريب قد تحول إلى عصفور.. أنا أتفهم أنك ربما لا تريد أن تعطيهم جوابا حقيقيا.. ربما هناك بعض المشاكل بينك وبين الموظفين.. أو بينك وبين رئيسك في العمل، ولكن أنت الآن في تحقيق رسمي ويجب عليك أن تجيب عن سؤالي إجابة واضحة نظيفة ومنطقية وألا تستخف بنا ولا بعملنا وإلا ستعرّض نفسك لما لا يحمد عقباه..

ـ صدقني أنا لا أستخف بكم، لكني أقول ما رأيته بعيني.. الأستاذ غريب تحول إلى عصفورا!

نظر المحقق في عيني الرجل، كانت نظرته مخيفة بعض الشيء لكن الرجل كان هادئا وبسيطا.. ولا يبدو أنه يتلاعب أو يخفي شيئا، ومع ذلك فقد أزاح عينيه بعد برهة من إطالة النظر دون فائدة.. وقد بدأ يرتبك قليلا.

ـ حسن جدا.. أخبرني ما الذي حصل بالتفصيل.. منذ أن كنت معه.

ـ كنا نجلس في المكتب ضمن دوامنا الرسمي.. كان غريب يحب أن يخرج للتنفس في الشرفة كل ساعة تقريبا.. كانت تلك عادته منذ أن عرفته زميلا في الشركة منذ خمس سنوات، وكنت في معظم الأحيان أخرج معه، مهما كان حال الطقس، حتى لو كان باردا جدا.. لم يكن ليترك فسحة التنفس كما كان يسميها..

ـ وماذا بعد؟

ـ نهض من خلف مكتبه ثم نظر إلي وأومأ إلى الشرفة.. فنهضت أنا أيضا متثاقلا.. خرج هو وخرجت وراءه.. استندنا إلى سور الشرفة الحديدي، كان هادئا أكثر من أي يوم آخر.. أطال النظر نحو السماء، كلمني قليل.. وكان حديثه غريبا أيضا.. ثم فجأة وبعد أن أنهى كلامه.. تقلص بسرعة البرق وصار عصفورا.. وقف فوق سور الشرفة.. نظر إليّ.. غرد للحظة.. ثم ببساطة طار.. ارتفع نحو السماء حتى اختفى وراء البناء.

ـ تقول بأن حديثه كان غريبا.. ما الذي قاله؟

ـ قال لي: ما سيحدث الآن يا صديقي سيكون له أثر كبير على حياتك.. ونصيحتي لك أن تثق بتجربتك.. وأن تثبت على روايتك، لأنك إن تراجعت ولو مرة واحدة عن شهادتك التي آمنت بصحتها فستصبح حياتك

عبثا. ولك أن تعرف أنك إن وثقت بصحة ماسترى الآن فسيجعلك هذا في عيون الناس مجنونا أو مريضا.. ولكن صدقني.. حياتك لن تكون عبثا..

هز المحقق رأسه وقال:

ـ أكمل.. هل قال هذا فقط؟ وأنت هل سكتّ بعد أن قال هذا؟

ـ لا طبعا سألته ما الذي يقصده؟ وظننت أنه سيدخل بحوار فلسفي من حواراته التي يثيرها عادة كلما خرجنا من دائرة العمل اليومي إلى فسحة التنفس.. لكنه أجاب: سينكرون عليك إجابتك.. وستصبح منبوذا.. لن يتفهموا الأمر.. وستجد أن حياتك أو تلك التي تظنها حياتك ستتفتت قطعة قطعة بسبب ثباتك على روايتك.. لكن ما سيظهر تحت تلك القشرة سيكون حقيقيا وسيحقق لك الرضى الحقيقي الذي لن تشعر بمثله أبدا في حياتك المزيفة.. سامحني فقد اخترتك أنت لتكون شاهدي.. أعلم أن الأمر صعب.. لكنك أهل لذلك.

ـ وأنت ألم تشكّ في كل ذلك الخطاب أن شيئا عجيبا سيحدث؟

ـ بلى.. ظننت أنه سيخبرني سرا أو أنه سيستقيل من الوظيفة التي أنهكته لسنوات.. ظننت أنه سيسافر

أخيرا ويحقق حلمه.. حاملا معه حقيبته فقط ودفتره وقلمه وآلة تصويره.. سينام في خيمة في الصحراء أو الأدغال.. وسيعيش على هامش الدوائر التي كان ينتقدها.. لكني لم أتوقع أن أراه يتحول إلى عصفور بتلك البساطة!!

ـ تقولها وكأن ذلك أمر من الممكن حدوثه ولو بصعوبة.. هل أنت مجنون؟

ـ لا.. لا أقصد إمكانية حدوثه.. فهو قد حدث فعلا ببساطة مذهلة.. كأنك ترى لاعب خفة يومئ برأسه ويحرك يده.. فتتحول شعلة النار بطرفة عين إلى عصفور.. بتلك البساطة.. لم يتقلص ببطء بل بسرعة شديدة يصعب إدراكها..

ـ تقول أنك صديق الأستاذ غريب.. حدثني عنه.

ـ نعم هو صديقي. كان هو المسؤول عن تدريبي بداية عندما تم تعييني في الشركة ثم أصبحنا زملاء في نفس القسم. ومالبثت أن تعمقت تلك الزمالة من خلال الحوار اليومي والعشرة المتواصلة لتصبح صداقة وطيدة. الأستاذ غريب كان شبيها باسمه.. غريبا.. يحلم بالانعتاق.. يشعر على الدوام أن الأرض تخنقه وأنه بحاجة للانطلاق في مساحة واسعة.. كان يتكلم كثيرا عن السفر.. ولديه معلومات واسعة عن الفضاء

والنجوم.. وكان قارئا نهما.. يقرأ الكثير من الكتب ثم يخبرني بفحواها في فسحتنا اليومية في الشرفة.. كان يحب الأدب والفلسفة والتاريخ.. ويعشق الشعر الحديث.. ويتذوق اللغة كأنه يتذوق طعاما فاخرا.. يكره الصراخ والضجيج كرهه للشيطان.. يقول دائما بأن الضجيج عمل شيطاني وأن الأمكنة التي يملؤها الضجيج دون رادع هي أمكنة باعت نفسها لحكم الشيطان.. لم يكن متابعا للرياضة ولم يكن لديه تلفاز.. كان يحب الموسيقى ويحتفي بمجموعته الموسيقية المنتقاة في منزله.. لا يحب أكل اللحم فهو شخص عاشب كما يحب أن يسمي نفسه.. ولديه نظرية مضحكة حول هذا الأمر فقد كان يقول بأنه يفضل أن يكون حيوانا عاشبا لا لاحما.. وأنه قد اختار أن يكون فيلا من مجموعة الحيوانات العاشبة كي يأكل العشب وفي الوقت نفسه ترهب الضواري اللاحمة قوته فلا تأكله.. كان يفرح بتذوق الأطباق الجديدة ويحتفل عندما يجد شخصا مبتسما.. لم يكن متزوجا.. ولم أعرف له أقرباء.. كنت دوما أشعر بأنه ورقة خضراء وحيدة في شجرة ضخمة مليئة بالحياة.

ـ لمَ لمْ يسافر إن كان وحيدا كما تقول؟

ـ كان على وشك السفر.. كان يعد العدة المالية لذلك.. ويقتصد من مرتبه من أجل القيام برحلته.. لكنه تحول إلى عصفور قبل أن يقوم بها.. أو ربما..

ـ ربما ماذا؟

ـ ربما كانت تلك هي رحلته التي كان دائما يعد العدة لها..

ـ وما الذي حصل بعد أن «تحول» كما تقول؟

ـ وقفت عدة دقائق لا أكاد أصدق ما جرى.. ثم عدت وكررت ما قاله وكأنني أستظهره.. لقد كان يعرف أنه سيتحول إلى عصفور وكان يريدني أن أشهد هذا التحول ويريدني أيضا أن أنقل هذا الحدث إلى الناس بأمانة.. وأن أثبت على شهادتي التي ستجعلني أبدو مجنونا.. كررت المشهد وحاولت أن أكرر كلامه حتى استوعبته.. وتقبلت نفسي ما رأته عيني.. لا أعرف كم من الوقت قد مضى قبل أن يخرج إليّ أحد الموظفين الذي شعر بتأخرنا في الشرفة.. ولما لم يجد الأستاذ غريب معي سألني.. فأجبته: لقد تحول إلى عصفور.

ـ وكيف كان رد فعل الموظفين ومدير الشركة؟

ـ نادى الموظف لزميل آخر.. وبدؤوا يتجمعون في الشرفة.. ويخبر بعضهم بعضا أن الأستاذ غريب قد اختفى وأني قد جننت.. حتى وصل الأمر إلى مديري المباشر ومنه إلى المدير العام.. الذي استدعاني على الفور وسألني فكررت إجابتي. وتضخم الأمر على الفور.. فخرجت وتوجهت إلى منزلي وجلست هناك أنتظر

ما سيحدث، ولما ثبت في اليوم التالي عدم حضور الأستاذ غريب وعدم حضوري أيضا.. صار الأمر جنائيا وأخبروا الشرطة على ما يظهر، فجئتم بي من منزلي إلى هنا.

ـ هل أخبرت أحدا في المنزل عما حدث؟

ـ نعم أخبرت زوجتي.

ـ وهل صدقتك؟

سكت الرجل ولم يرد، فكرر المحقق السؤال بصوت خشن:

ـ أسألك.. هل صدقتك زوجتك؟!

ـ لا.. لم تصدقني.

قالها الرجل بصوت شاحب فيه ألم مدفون.

ابتسم المحقق وقال:

ـ لأنها عاقلة.. طبعا لن تصدقك.. هه.. تحول إلى عصفور!! وملابسه؟! أين ذهبت ملابسه!

ـ لا أعرف صدقني.. لقد تحول الرجل إلى عصفور.. ربما تحولت ملابسه إلى ريش.

ـ هل تمزح معي أيها المعتوه؟! بل ربما لم يتحول إلى شيء وأنت قتلته وأخفيت جثته.

ـ كيف سأخفي جثته في شرفة صغيرة لا يوجد فيها سوى نبتة واحدة صغيرة بحجم كف اليد.. وضعها هو منذ عامين.. ليسقيها ويرعاها.

..

..

ـ ستحتجز لدينا حتى تقول الحقيقة،

لن تخرج أبدا حتى تخبرنا بما جرى حرفيا بعيدا عن التحول إلى عصافير.

استدعى المحقق شخصا مجهولا بضغطة فوق زر خفيّ تحت مكتبه، ففتح الباب ودخل شاب يرتدي ملابس بلا ألوان.. شد المتهم وزج به في زنزانة داكنة بلا نوافذ.

الفصل الثاني: السجن الأصغر

في وقت ما من اليوم التالي وفي ساعة لم يستطع

تحديدها ليلا كانت أم نهارا، فُتح باب الزنزانة ودخل رجل

ضخم أشار له بيده أن ينهض.. ثم ساقه أمامه نحو غرفة أخرى.. يجلس فيها شخص بلا ملامح خلف طاولة خشبية..

أجلسوه خلف الطاولة مقابل الشخص الذي كان واضحا أنه محقق الطوابق السفلى.

ـ أين الأستاذ غريب؟

ـ لقد تحول إلى عصفور.

هوت قبضة الرجل الضخم على وجهه بصفعة هائلة رمته من فوق الكرسي.. وجعلته يشعر بأن الأرض تدور من تحته.

ـ أعده إلى الكرسي.

قال الرجل بلا ملامح.. ثم أعاد سؤاله:

ـ أين الأستاذ غريب؟

ـ لقد تحول إلى عصفور.

ضربة أخرى هوت فوق وجهه فخرج على إثرها سن من أسنانه الأمامية.. وبصق كمية كبيرة من الدم.. وأدرك أن الأيام القادمة ستحمل كل ما يمكن للحياة المزيفة أن تحمله من قسوة وشراسة.

كرر الشخص نفس السؤال بنفس الوتيرة :

ـ أين الأستاذ غريب؟

ـ لو قلت لكم غير الذي قلته سأكون كاذبا.. ما الذي تريدون سماعه؟ أني قتلته؟ ما السبب؟ لقد كان صديقي.. وحتى إن قتلته؟ أين أخفيت الجثة؟ حسن جدا.. أنا قتلته وأذبت الجثة بزجاجة أسيد صغيرة بخلطة كيميائية سحرية.. صنعتها في الهند. هل هذا يرضيكم؟ قل لي ما الذي تود سماعه وسأقوله..

كي لا تتعبوا نفسكم ولا تتعبوني..

ـ هل تتلاعب بنا أيها الغبي؟

ـ لا تصدقوني إن قلت لكم أنه قد تحول إلى عصفور ولا تصدقوني إن قلت لكم أنني قتلته وأذبت جثته.. فما الذي تبحثون عنه؟

ـ الحقيقة..

ـ أخبرتكم الحقيقة التي رأيتها ولم تعجبكم.. فصّلوا إذن الحقيقة التي تودون سماعاها كي أقولها لكم.

ضربة أخرى هوت فوق وجهه.. ثم سلسلة من الضربات التي أشعرته بالخدر.. ثم أفقدته الوعي أخيرا.

كانت الأيام التالية صعبة ومرهقة.. يتكرر فيها السؤال وتتكرر فيها الإجابة ويتكرر الضرب والسقوط..

ثم يعود ليجلس في زنزانته وحيدا.. ينهكه التفكير واستعادة الأحداث.

فكر كثيرا.. هل من الممكن أن يكون فعلا قد انتابه الجنون؟ وأنه قد رأى فقط ما تخيله؟

إذن أين الأستاذ غريب؟

هل من الممكن أن يكون قد سافر مثلا دون أن يخبر أحدا؟ وأنه هو السجين المهووس قد اخترع اختفاء صديقه بتلك الطريقة من أجل أن يضفي على الأمر صبغة شعرية؟

وإن كان كذلك.. فما الفاصل إذن بين الوعي والجنون إن كانت أي فكرة لا يمكننا إخضاعها لمنطقنا سنصف صاحبها بالجنون أو بقلة الوعي أو بالكذب..

لقد تم عرضه على طبيب أمراض عقلية في السجن.. وكان تقرير الطبيب واضحا.. أن الرجل عاقل وأن ادعاءه ناجم عن كذب واعٍ بل وبكامل القوى العقلية.. لا عن هلوسة مريض مختل..

حتى الطبيب أثبت أنه عاقل.. فمن أين إذن يأتي الجنون؟

كان كلما شك في نفسه وكذّب يقينه.. وجد اليقين يتعاظم في نفسه من جديد وبشكل أكبر.. حتى وصل إلى مرحلة لا يمكن لأي شك أن يزعزعها.. لقد رأى ما حصل.. وهو يؤمن بما حصل..

لقد تحوّل صديقه إلى عصفور. ولن يغير شهادته.

بعد شهرين متواصلين من الحجز والتحقيق تم إطلاق سراحه، وتم إقفال القضية التي لا دليل جنائي واحد فيها على تورطه بفعل جرمي خاصة في ظل اختفاء الجثة..

وتم حفظ قضية الاختفاء الغامض للأستاذ غريب دون حل.

الفصل الثالث: السجن الأكبر

بدأ وجهه يتعافى من القسوة التي تعرض لها في السجن. لم يفاجئه فصله من الشركة من دون سبب.. لكن ما فاجأه هو تساقط الوجوه من حوله كأوراق يابسة في شجرة محتضرة.

صار جيرانه يتجنبونه كأنه قطة قد أصابها الجرب، وبأفضل الأحوال يبتسمون له ابتسامة مضطربة يصحبها انسحاب فوري.

اختفى أقرباؤه أيضا..

أما زوجته فقد أعلنت انسحابها المطلق بعد آخر حوار دار بينهما أصر فيه على شهادته الثابتة:

ـ لقد تحوّل إلى عصفور.

وهذا ما جعلها تقول له بيقين:

ـ لقد تحولت أنت إلى مجنون.. وليس باستطاعتي إكمال الحياة بصحبتك.

فرغ المنزل.. وفرغت الأيام.

خرجت الوجوه والأشخاص والأصوات من عالمه.. وانتقل من الازدحام إلى هدوء جديد لم يعهده من قبل..

أصبح أصفى ذهنا وأكثر تركيزا.. وكان دائم التفكير بحواراته مع الأستاذ غريب..

لقد قال له مرة أن الأمور الثابتة التي يبني عليها الناس حياتهم ما هي إلى أعواد ثقاب ضعيفة يضع الإنسان فوقها كل ثقله على أنها أساس متين، ثم يكتشف فجأة عند سقوطها أو احتراقها أنه قد قامر على هباء.. لكنه وبحكم نسيانه يعيد تأسيس حياته من جديد ويبنيه على هباء جديد.. مرة أخرى..

أخبره أن لا شيء يعادل التحليق الحر في سماء واسعة.. وأنه يوقن أن شعور الطائر أشبه بشعور الروح الحرة التي تنتقل بحرية في براح لا عوائق فيه.

قال له أن الخفة هي ما يلزم الإنسان كي يقشر تلك الأعباء، الخفة الحقيقية التي تجعله يرتفع خارج حظيرة المسميات التي يلصقها على جبينه ويقنع نفسه بضرورتها حتى تصبح أعباء لا يدرك ثقلها إلا عندما يغرق في التراب.

أخبره أيضا.. أنه مؤمن بوجود سلسلة من البشر خلقوا بمقومات العصافير.. وأن مهمتهم تقشير دوامات الاستهلاك سعيا وراء الجوهر وما يحتويه من كنوز الرضى والسلام السماوي والوجه الحقيقي للإنسان.

لقد بدأ يمضغ تلك «التعاليم» التي ألقاها الأستاذ غريب عبر سنوات قبل أن يتحول إلى عصفور.. حتى صار

نهاره سلاما متواصلا خارج دائرة السقوط..

أصبح كثير المشي والتنزه.. يحب الطبيعة ويجد متعته في الحدائق ويلمس جذور سعادته في مراقبة الأوراق.. وكان له مقعد معين في حديقة يحب زيارتها بشكل يومي.

في يوم خريفي جلس فوق مقعده الخشبي يتأمل ما حوله بهدوء، ثم أغمض عينيه محافظا على تنفسه العميق..

ظهرت فجأة فتاة صغيرة من مكان مجهول وجلست بجانبه..

ـ هل أنت نائم؟

سألته بصوت مازال مشبعا بالطفولة.

فتح عينيه ونظر إليها متفاجئا وقال:

ـ لا.. أغمضت عيني كي أتذكر صديقي الذي لم أشاهده منذ زمن طويل.

ـ ما اسمه؟

ـ غريب.

ـ وأين هو؟

ـ لقد تحول إلى عصفور.

ابتسمت الفتاة وقالت بسرعة ولهفة:

ـ ما لونه؟

..

لم يصدق ما سمعه..

أصابه فرح شامل غطى نفسه من الأطراف إلى الجذور.. كشلال خاطف شمله بانتعاش يشبه شمسا أشرقت من بين ألف غيمة.

أجابــها ببساطة:

ـ لونه أصفر.

ـ هل كان صوته جميلا؟

ـ نعم.. لقد غنى لي بسرعة وطار.

ـ حظك جميل أنك رأيته عندما تحول إلى عصفور.

ضحك الرجل وبكى في آن معا..

سألته الفتاة:

ـ ما اسمك؟

شعر بأنه قد نسي اسمه.. فأجاب:

ـ اسمي غريب.

ـ هل ستتحول أيضا أيضا إلى عصفور؟

هزّ الرجل رأسه وقد شعر بأنه غريب حقيقي.. ثم قال:

ـ سامحيني،

لقد اخترتك أنتِ لتكوني شاهدي.. أعلم أن الأمر صعب.. لكنكِ أهل لذلك.

..

اختفى الرجل فجأة..

وظهر عصفور صغير أصفر بجانب الفتاة..

غنى لها قليلا ثم طار عاليا حتى تلاشى في السماء.

..

حاولت الفتاة كثيرا في الأيام التالية أن تقنع والديها بأنها قد رأت رجلا في الحديقة اسمه غريب..

وأنه تحول أمام عينيها إلى عصفور أصفر.

لكن البالغين كعادتهم لا يصدقون حكايا الأطفال..

ولا الغرباء..

ولا المجانين.

..

النهاية.